أزمة فكر ومنهاج لا أزمة صدق وإخلاص

إن من تأمل ما أصاب طوائف من المسلمين عبر تاريخ هذه الأمة من خلل في الفكر ، أو انحراف في السلوك ، أو تخلف في قيم الحضارة ، يجد أن أكثره من عند أنفسهم ، بسبب فساد المناهج والمشارب ، واستشراء العجز والكسل ، والتقاعس عن تحقيق أسباب الاستقامة والرقي ، وهي سنة الله في خلقه ، إذ لا يستقيم الظل والعود أعوج .

فهذه الأمة أتيت من داخلها ، بانحراف طوائف القاسطين فيها عن نهج سنن أهل العلم وحماة الفكر ، والاستمساك بسنن النصر والعزة . وهي سنن لا ترحم أحدا ، فإن نقطة الانطلاق تحدد مرام الوصول ، وإذا اختل المنهاج آل الناس إلى عوج وتيه وضلال ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك:٢٢] .

فقد انحرف طوائف من هذه الأمة عن الجادة ، ونسوا حظا مما ذكروا به ، وصار أخلافهم من المقلدين يجترون الغث من هذا التراث في عماية وضلالة على غير منهاج وطريق .

فآلت الأهواء الحادثة عندهم مسلمات ، والثوابت بإزاء أهوائهم ظنونا متغيرات ، والشرائع جامدة معطلة ، والفروع والكليات مضيعة . أكثرهم فرطوا في الأصول ، واقتتلوا على الفروع ، وعطلوا نعمة العقل والنظر ، حتى صار الجهل علما ، والهوى سياسة ، والصلف والجرأة على الدين حرية ، والكفر وجهة نظر ، والسفه خلافا في الرأي ينبغي أن يُعتبر !!

ثم تراهم بعد ذلك يعودون باللآئمة على غيرهم ، ويردون البلاء إلى مكر اليهود والنصارى ، وقد بلغوا من أنفسهم ما لم يبلغه أعداؤهم منهم .

كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٥] .

وقد تظافرت الأدلة على أن أزمة المسلمين اليوم أزمة فقه ومنهاج ، قبل أن تكون أزمة صدق وإخلاص ، فإن من ضل من طوائف أهل البدع والأهواء لم يعدم أكثرهم صدقا ولا إخلاصا ، ولم يفتهم التعلق بحب الخير لهذه الأمة ، لكن فاتهم طريق العلم ، حيث ضرب بينهم وبين سنن أهل العلم بأسداد ، فكانوا أبعد عن السداد .

والمسلم مرآة عقله ، وحاله انعكاس لمنهجه وفكره ، فالعقل الإسلامي من نفسه أُتي ، وعلى نفسها جنت براقش ، كما قال الشاعر :

دواؤك فيك وما تُبصر ... وداؤك منك وما تشعر

وتحسب أنك جِرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

فأنت الكتاب المبين الذي ... بأحرفه يظهر المُضمر (١)

فمن الواجب على حملة العلم ودارسي التراث الإسلامي إحكام قواعد المعرفة ومنهج نخل التراث بغثة وسمينه ، وخميره وعفينه ، باستلهام المنهج الإسلامي في نقد النظريات والأفكار ، الذي ينبني على أصول العقيدة ، وقواعد النقد عند المحدثين ، وأصول النظر والاستدلال عند الأصوليين والفقهاء ، فهي مناط قواعد المعرفة الإسلامية ، وبها يتم تأصيل الفكر الإسلامي الصحيح .

ومن سداد المنهاج في نقد التراث وتأصيل المعرفة مراجعة فهم السلف ومن سار على نهجهم من العلماء في غربلة العلوم وأفكار الطوائف والرجال ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأغزرها علما ، وأقلها حشوا وتكلفا ، وقد كانوا أقرب الناس إلى

---

(١) الكشكول لبهاء الدين العاملي : ١/ ٢١٢.

معرفة مكامن القوة والخلل في فكر الأمة ، وعلموا من ذلك فوق ماعلمنا ، فما كان منه صالحا موافقا للأصول أخذناه ، وما كان من ذلك شرا وبلاء مناقضا لها تركناه .

وليس المنهاج مجموعة نصوص يقرؤها المرء ويطير بها كل مطار دون فقه أو دراية ، بل «المنهاج قواعد علمية مستفادة من ثمرات العلم بالنصوص ، وتفاعل العقل مع الوحي ، وامتزاج النظر بالأثر» .

وهذه القواعد دل عليها استقراء صنيع العلماء في النظر والاجتهاد في تأصيل المعارف والعلوم ، واستثمار النظريات والأفكار ، والكشف عن سنن الله الشرعية والكونية . إذ لا بصر لهذه العقول إلا بنور القرآن والسنة ، ومزج ذلك بالنظر في سنن الله الكونية والشرعية في الآفاق والأنفس والمجتمعات .

*****